الأفغاني والوحدة الإسلامية

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

— ٤ —

وأخيراً ، أين بلغ الأفغاني من التأثير في المسلمين بدعوته ؟ وأين وصل من الطريق إلى هدفه وغايته ؟ وماذا أجدى في تحقيق تلك الفكرة التي نهض لها ملء يقينه وجهد طاقته ؟

إننا نستمع إليه في آخر حياته يرسل هــذه الصيحة الأليمة اليائسة إذ يقول : « إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم ، وهو شهواتهم ! »

في هذه الصرخة التي تفيض بالألم نرى الرجل مغيظاً محنقاً ، لأنه لم يجد في المسلمين العزيمة التي كان يتمثلها ، والوثبة التي كان يتوقعها ، وكأنه يقول : لقد ناديت لو أسمعت حياً ، والواقع أن الرجل لم يكن يستطيع أن يبلغ أكثر مما بلغ ، فإنه كان ينادي على قوم يأخذون طريقهم إلى النهاية ، وسنن الوجود الاجتماعي لها في هذا حكمها الذي لا يرد ، وقد كان التيار المتدفق من الخارج قوياً عنيفاً ، ودنيا النضال والنزال في عهد جديد تسيطر عليه الآلة ، وهو عالم لا يعرف عنه المسلمون إلا كما يعرفون عن عالم السحر ودنيا الجان

فحسب الرجل نجاحاً أنه فتح العيون على الخطر الماثل ، ونبه الأذهان إلى غاية الشر المتنمر ، وأنه استطاع بصادق غيرته وقوة يقينه أن يجعل من دعوته نقطة تحول في حياة الشرق العربي ، وأن يقيمها عقيدة اجتماعية لها تيارها واتجاهها في تلوين الأفكار وتوجيه العقول والأفهام ، على أننا لا ننسى أن الأفغاني في هذا كله كان لا يملك كثيراً من الوسائل المساعدة ، فهو رجل فقير مضطهد ، الملوك وأهل السلطان يخذلون جهده ، ودول الاستعمار وأهل المآرب يناهضون فكرته ، فتراه كل يوم على سفر يضرب في فجاج الأرض ، كل ما في قدرته أن يلقي بأفكاره إلى أفهام الطبقة المثقفة ، وكانت يومذاك قلة ، وليست في يده الوسيلة التي يصل بها إلى الرأي العام ، ونحن نعلم من شواهد التاريخ أن الرأي العام هو القوة الفعالة في تحقيق الدعوات ، وأن الجماهير هي الوقود الذي ينضج الثورات

ولعل أهم ما أجدى السيد الأفغاني في توطيد دعوته والامتداد بأثرها في إيقاظ الشرق وتنويره ، هم أولئك التلاميذ ، أو على الأصح أولئك المريدون الذين طبعهم بطابعه ، وصقلهم على غراره وخلع عليهم كل ما خصه الله به من عبقرية الدرس وعبقرية النفس ، فكانوا لسان صدق للدعوة ، وكانوا دعاة مخلصين واجهوا بها الأحداث في إباء وشجاعة ، ولاقوا من أجلها الأهوال في قوة وصرامة ، وقد كان أبرز هؤلاء الدعاة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضوان الله عليه ، والسيد عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله

أما الشيخ محمد عبده ، فقد كان صوتاً متفقاً مع الأفغاني ، شاركه الرأي والجهاد في ميدان واحد ، وأما الكواكبي فكانت حياته أشبه ما تكون بحياة أستاذه في الرحلة والتنقل من قطر إلى قطر ، وكانت تعاليمه ودعوته إلى الوحدة صورة مطابقة لما كان ينادي به الأفغاني . كان الأفغاني كما مر بك يرى أن تقوم الدعاية للوحدة بعقد مؤتمر عام كل سنة في مكة يجمع أصحاب الكلمة والرأي من العلماء لحسم كل نزاع ، وتدبير كل ما من شأنه النهوض بالمسلمين ، فتطوع الكواكبي لعقد هذا المؤتمر في عالم الخيال أو في عالم الأمل ، وندب له أعضاء من جميع الأقطار الإسلامية ، ووضع أمامهم حال المسلمين للبحث وتمحيص الرأي ، وقد جعل هذا موضوع كتابه المعروف « بأم القرى » ، وهو اسم أخذه أيضاً من اسم الجمعية التي كان أنشأها أستاذه بمكة من قبل

ولكن هؤلاء الدعاة ، وهم ما هم في صدقهم وإخلاصهم لم يستطيعوا أن يتمسكوا إلى آخر الشوط بدعوة الأفغاني في نصها وحرفيتها كما يقولون ، لأن الحوادث كانت تتطور تطوراً سريعاً يحيط بهم ، ويكبر على جهدهم ، فكان عليهم أن يلائموا بين خطتهم وبين طبيعة الحوادث ، وقد تبصر المعتدلون من هؤلاء المريدين والأتباع ، فرأوا أن وحدة تشمل سائر الأقطار الإسلامية وتجمعها في صعيد واحد لا يمكن أن تقوم لا في الوضع السياسي ولا الاجتماعي ولا العمراني ، وأن الفكرة في ذلك فكرة تضفلنة

متموجة لا تحدها معالم ثابتة ولا تسندها مقومات متينة ، فضلا عما تثيره من الاتهامات والشبهات وما تلاقيه من المناهضة والمقاومة فعدلوا عن الوحدة الإسلامية إلى الوحدة العربية ، واختزلوا رغبة الأفغانى فى قيام وحدة تشمل سائر الأقطار الإسلامية إلى وحدة عربية تجمع الأقطار المتجاورة المتشابهة التى وحدت حوادث التاريخ الماضى بينها فى اللغة والتفكير والمظهر الاجتماعى ، والتى تؤلف بينها الأغراض المشتركة والآمال المتفقة فى الفوز بحياة الحرية والعزة ، ولم يكن قصدهم « العربية » المحصورة فى شبه الجزيرة العربية فحسب ، بل كانوا يقصدون أيضاً مايتفرع عنها من الجنس السامى فى العراق وسوريا وفلسطين ولبنان ، وما يتصل بها من الجنس الحامى فى مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وكانوا يعتقدون أن رابطة تشمل هذه الأقطار مما يدخل فى دائرة الإمكان ، بل إنها قائمة روحياً ومعنوياً ، لا ينقصها إلا خطوة نحو التنفيذ والإنجاز !

وإذا كان دعاة « الإسلامية » قد وقفوا فى تأييد دعوتهم عند أساليب الحث والوعظ والتذكير والإهابة بضرب الأمثال وأناشيد المجد السالف ، فإن دعاة « العربية » قد أخذوا فى دعم فكرتهم بأساليب الفلسفة السياسية والاجتماعية ، وخلعوا عليها لباساً علمياً من النظريات العلمية التى كانت شائعة بين العلماء فى ذلك الوقت . كانت الجامعة السياسية فى رأى علماء الألمان تقوم على وحدة اللغة ووحدة الجنس ، وعند علماء الطليان ترتكز على وحدة التاريخ ووحدة العادات ، وعلى مذهب الفرنسيين تعتمد على وحدة الطموح السياسى ونفوذ السلطان ، وفى جماع هذه الآراء والاتجاهات وجد دعاة العربية برهاناً لدعوتهم ، من وحدة اللغة ، ووحدة الجنس ، ووحدة التاريخ ، ووحدة التقاليد ، ووحدة الطموح السياسى ، وبهذه الصبغة صبغوا دعوتهم ونادوا بفكرتهم وانتصروا لها بكل ما يملكون من أساليب البيان واللسان

وأذكى تيار هذه الفكرة ما كان من غطرسة الحكم التركى فى الاستخفاف بحقوق العرب والنظر إليهم بعين الإغضاء والاستهانة ، وقد اضطرت تركيا تحت هذا الضغط إلى إصدار كثير من «الفرمانات» تعلن فيها المساواة بين الأجناس والأديان فى السلطنة العثمانية ، ثم أعلنت دستور سنة ١٩٠٩ ، فغمرت العرب موجة من السرور والارتياح ، وشاموا فى هذا بداية عهد جديد يؤدى إلى جمع القلوب ، ولكن سرعان ما تكشفت الأمور فإذا هى هباء وألاعيب ، وإذا الاتحاديون الذين أعلنوا الدستور وجاهدوا من أجله أشد النلاة فى هضم حقوق العرب والاستهانة بحريتهم وكرامتهم ، وظهر لأبناء العروبة أن « الفرمانات » التى حررت ، والدستور الذى أعلن لم يكن إلا حبراً على ورق ، فانقلبت آمالهم إلى خيبة مريرة ، وحسرة قاسية ، واشتدت عصبيتهم لجنسيتهم ، ووقفوا والعثمانيين وجهاً لوجه .

كانت هذه الحركة أقوى ما تكون فى سوريا والعراق لوقوعهما مباشرة تحت سلطة تركيا ، ولكن مصر كانت أوسع ميدان لها وأفسح مجال للعاملين على امتدادها ، إذ كانت مصر فى هذه الفترة موئلاً للمتمردين على الحكم العثمانى من أبناء الأقطار العربية ، كما كانت مجال حركة فكرية تملك من الوسائل والأسباب ما لا يملك غيرها من أقطار العالم العربى ، وامتد تيار هذه الحركة على أوسع ما يكون ، وتألفت أحزاب وجمعيات ومنتديات كثيرة فى مصر وبيروت وفى الأستانة نفسها ، وكل منها يعمل فى طريق للنهوض بأبناء العربية ، ووقف الشعوبيون من أنصار الرابطة « الطورانية » يناهضون هذا الاتجاه ويناضلون العرب فيما يدعون إليه ، ووجد أنصار الأغراض الاستعمارية لأنفسهم من هذا منفذاً لبث آرائهم ودعاياتهم ، فكان أن أصبح الرأى فوضى لا قوام له ، وأصبح الدعاة للوحدة والنهوض يخضعون لتيارات مختلفة ويعملون لأغراض متباينة ، ففى مصر مثلاً كان الرأى القوى الذائع هو أن تنال مصر استقلالها وأن تتحد مع جاراتها العربية ، على أن يكون ذلك فى ظل الولاء للخلافة العثمانية ، ولكنك كنت تجد فى الجهة المقابلة رأياً يدعو إلى الاستقلال عن كل سلطة خارجية وصلة أجنبية ورعاية مصالح مصر قبل أى اعتبار آخر ، وفى سوريا والعراق كان جماعة ينتصرون للعربية من عسف الأتراك ، ويدعون إلى الوحدة على أن تظل على الإخلاص لبنى عثمان ، ولكن الرأى السائد كان عداوة للأتراك ، وعصبية للجنس ، وتشنيعاً على الاستعمار العثمانى فى جميع أطواره ، وكان أصحاب هذا

الرأى يعتقدون أن العرب إذا انسلخوا عن الوحدة العثمانية فى مقدورهم «أن يقيموا لأنفسهم دعائم استقلال سياسى» ، ولا بأس عليهم من الاستعمار الأوربى ، وكان أكثر أهل هذا الرأى من «محترفى السياسة وتجارها» كما يقول بعض الكتاب ، ولسنا فى مقام توزيع التبعات وتحقيق الاتهامات وتفنيد الآراء ، ولكنها إلمامة عارضة أوردناها على قدر ما يقتضيه الموضوع الذى نحن بصدده فى بيان الأثر الذى امتدت به دعوة الأفغانى .

هذه الفوضى التى اضطربت بالأفهام وبلبلت الأفكار ، وهذه الأغراض التى دخلت على الدعاة إلى الوحدة العربية واردة من « أوروبا » ، جعلت العقلاء ينظرون إلى المسألة بعين التبصر مرة أخرى ، ويحكّمون فيها عقولهم قبل أن يندفعوا إليها بعواطفهم ، فظهر لهم أن هناك خطراً ماثلاً يتهدد كل وحدة فى الشرق مهما كان لونها أو اتجاهها ، وأن أوربا تريد أن تضع يدها على تركة المسلمين تحت سمعهم وبصرهم ، وأن « القوة العثمانية التى تمثل الاستقلال السياسى للمسلمين والتى هى مظهر السيادة الإسلامية قد أصبحت معرضة لأشد الأخطار » ، ظهر كل هذا للعقلاء المتبصرين ، فأشفقوا من الخلاف القائم ، وانبروا يدعون إلى الاتحاد تحت راية الخلافة ، ويحضون على وحدة شاملة لمدافعة الخطر ، وكانت مصر أفسح ميدان لهذه الدعوة وأعلى صوت فى الدعاية لها والحض عليها ، لأن ما كانت تعانيه من عسف « كرومر » قد بصرها بالأمر ، ولأنها كانت فى النهضة الوطنية والفكرية أسبق وأنضج ، ولأن صلة « بيتها الحاكم » ببنى عثمان كانت تقوم على المودة والقرابة .

وبين عشية وضحاها وضح الأمر وتكشفت الحقيقة فيما توقعه أولئك العقلاء ، إذ تألبت ممالك البلقان على الدولة العثمانية ، ودهمت إيطاليا طرابلس وبرقة وضرب أسطولها بيروت فى غير شفقة ولا رحمة ، فهز هذا من أريحية المصريين ، واستثار عواطفهم وشجونهم ، وارتفعت الأصوات بالإشفاق على مجد الإسلام ومعالمه الباقية ، وعادت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية لتكون قوة فى وجه الاستعمار الذى كشف عن ناجذيه فى غير مواربة ، وقد بذلت مصر بذل المخلص الشريف فى نصرة العالم الإسلامى ، وأمدت تركيا بهبات سخية من المال والعتاد ، وأعانت المتكوبين إعانات فياضة ، مما دلّ على الإخلاص فى النية ، والصدق فى العزيمة ، والغوث فى الملمات .

واطردت الأمور متقلبة متحولة ، ومضت الأحوال تجرى بين جزر ومد ، ولم تلبث الحرب الماضية أن نشبت على أوسع رقعة ، ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، فطوى كل رأى فى صدور أصحابه ، ووقفت كل دعوة عند حدودها ، وأصبح الأمر للدعايات الحربية والسياسات الحربية والاتجاهات الملتبسة التى لا يرتبط فيها اللسان بالقلب ، ولا يتصل فيها القول بالعمل ، وفى هذا الجو ظهرت دعوة إلى « العربية » فى شكل جديد وعلى وضع جديد ، وكان الغرض فيها يدور حول الحركة التى قام بها السلطان « حسين بن على » فى الحجاز ، وامتدت دعايتها إلى سائر الأقطار العربية ، وكان هذا الغرض هو ما تكشفت عنه الحوادث فى أعقاب الحرب الماضية ، وكان أثر هذه الدعوة الجديدة هو ما انتهت إليه بعد .

الخلاصة :

فأنت ترى فيما أوردناه عليك ، أن الدعوة إلى الوحدة إنما نشأت « إسلامية » قوامها القرآن فى لسان الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وأضرابهم ، ثم اختزلت إلى « العربية » فى تقدير المعتدلين ممن جاءوا على أثرهم ورسموا طريقهم ، ثم تشعبت هذه « العربية » فيما بعد إلى شعب لها مراميها وأغراضها ، ولها أساليبها وسبلها ، ولا شك أن المؤرخ السياسى والاجتماعى لحياة الشرق العربى فى العصر الحديث لا بد له من تحليل هذه التيارات كعوامل وعناصر كان لها أثرها فى توجيه الرأى السياسى والاجتماعى الذى سيطر على الحركات الأخيرة ، وكيّف النهضات الحديثة ، وأدى إلى ما بلغته الأقطار العربية اليوم ، بل وما ستبلغه فى الغد ، والفضل فى هذا كله للأفغانى العظيم ، الذى وهب نفسه للوحدة ، وظل طول حياته يجاهد فى سبيل هذه الدعوة .

(تم البحث) محمد شوقى عبد اللطيف